في يوم المولد النبوي :

# يا سيدي يا رسول الله !

للأستاذ علي الطنطاوي

[ تسعون سنة كلها حديث الدنيا
فاسمعوا اليوم حديث الدين ]

الصلاة والسلام عليك ياسيدي يارسول الله ورحمة الله وبركاته

هذا يوم تشرفت في مثله الأرض بمولدك ، واستضاءت بنورك ، قد جعلناه بعدك عيداً — وأشهد ما شرعت لنا إلا «العيدين» — فنصبنا الأعلام ، و «أذعنا» الأنغام ، واجتمعنا على الخطب والكلام ، والشراب والطعام ، فالطرقات مزدحمة بالسرادقات ، والمساجد والمقابر ملأى بالزائرين والزائرات ، والصحف والمجلات ، فياضة بالفصول والمقالات ، وفي كل مكان مظاهر الأفراح والمسرات : في الشوارع والساحات ، والأزقة والحارات ...

فعلنا ذلك حباً بك ، وابتهاجاً بمولدك ، ثم أبنا إلى مساكننا فهجعنا هادئة ضمائرنا ، هانئة سرائرنا ، إذ قد وفينا لهذه الذكرى ، التي لم يمر على ذهن التاريخ الإنساني أعظم منها أثراً ، ولا أعلى قدراً ، ولا أبقى ذكراً ...

أما اتباع دينك ، والاهتداء بهديك ، والوقوف عند أمرك ونهيك ، فلم نفكر فيه ولم ندخله في « برنامج الاحتفال » !

فهل يعجبك يارسول الله ما فعلنا ؟ هل يرضى به ربك عنا ؟

لقد بعثت بـ « لا إله إلا الله » . دعوت العرب إليها فأبوها ، فأمرت أن تقاتلهم حتى يقولوها ، وخيّرتهم بين السيف وبينها فاختاروا السيف عليها ، وآثروا أن يهلكوا عن أن ينطقوا بها ، استصعبوها لأنهم عرفوا معناها ، فعلموا أنها ليست كلمة تقال بطرف اللسان ، ولكنها دستور للحياة كلها ، وصرف لها عن وجهتها ، وتبديل لكل صغيرة أو كبيرة فيها .

نفعا ولا عنها دفعا ، لا يحفل بهم الليل والنهار ، ولا تنظر إليهم السماء والأرض ، ويرون أنفسهم تذهب كما تمضي ورقة جافة أو تبنة تافهة .. عندئذ يأخذهم العجز بقوته السالبة الغالبة إلى عتبات ربهم يطرحون عليها قلوبهم ويعفرون بترابها وجوههم ويبللونها بدموعهم ويقولون مع ابي نواس :

ذهبت جِدّتي بطاعة نفسي وتطلبت طاعة الله نِضوا

ومن رحمة الله بالناس أن جعل الدور الأخير من حياة أكثرهم فترة عجز وضعف وخمود يدركون فيها حقيقة حياتهم وحقيقة الحياة كلها ويخلصون فيها لأنفسهم ، يصفون ما بها من غرور ويبصرون الطريق إلى الايمان ، وتصح أحلامهم ويرعوي بالحلم ويتركون ميادين النزاع والأباطيل ويقولون مع ابن المعتز :

أخذت من شبابيَ الأيام وتولى الصبا عليه السلام
وارعوى باطلي وبان حديث النفس مني وصحت الأحلام

ولو استمر شباب الجسم وعنفوانه يصحب الناس إلى نهاية حياتهم ما ارعوى باطلهم ولا خف طيشهم ونزاعهم ، ولا صفت طباعهم من ثورة الأكدار التي تثيرها نوازع الشباب واحتداماته واندفاعاته ؛ لأن السر في اندفاع الشباب أنه يعتمد على ذخيرة من قوى الحياة التي تقتضيها آلات الجسم الصحيح والعيش الصحيح ، ولأنه لم يبصر كثيراً من الأحكام الصحيحة على الحياة إذ هو مشغول باحساسه بفيض الحياة ونشوتها الناضرة ، فلم تترك له عجلتها الدائرة في جلبة وقوة أن يبصر الأشياء الثابتة ، لأن حركة الحياة في نفسه تزيغ نظره عن الأوضاع الصحيحة . فإذا ابتدأت العجلة تهدأ من دورانها شيئاً فشيئاً استطاع المرء أن يبصر الأمور في رَيْثٍ وهَيْنةٍ ويتملى في أوضاعها المختلفة فيحكم عليها حكما صحيحاً .

فلترد النفس في فترات إلى الشعور بالعجز وسط جبروت الكون وهول الطبيعة وإصرارها على قوانينها ، ودوامها في سلطانها ، حتى تشعر دائماً أنها في الكون شيء ربما يكون غير مذكور . ولنأخذ من العدل قوانين تعدل قوانين القوة والبطش التي لا يدين الناس لغيرها

وليكن ما في العجز من ظلال عكسية لأوضاع القوة في الحياة سبيلاً لإيقاظنا إلى واجبات لا نراها إلا في هذه الظلال ، تلك الواجبات التي لا تسوقنا إليها القوة ، وإنما تسوقنا إليها الرحمة .

عبد المنعم خلاف

لا إله إلا الله : لاينفع ولا يضر إلا الله ، فلا تخش فى الحق غيره ، ولا تذلّ فى الرجاء لسواه .

لا إله إلا الله : هو القادر فلا تخف أحداً إن كنت معه ، هو البصير فلا تستتر بذنبك منه ، هو الرحمن فلا تيأس من رحمته ، هو الجبار فلا تأمن غضبه ، هو معك حيثما كنت يراك أبداً فاعبده كأنك تراه . هو الخالق البارئ المصور ، أعطاك البصر فلا تنظر به إلى عورة ، والسمع فلا تلقه إلى سوء ، واللسان فلا تحركه بمحرّم ، واليد فلا تستعملها فى عدوان ، والرجل فلا تمش بها إلى ظلم ، والبطن فلا تدخل فيه إلا حلالا ، وأنت منه وإليه لامخرج لك عن ملكه . وهو المحيى المميت ، منحك الحياة فلا تنفق دقيقة منها فيما يكره ، وكتب عليك الموت فاذكره أبداً وتهيأ له ولا تنس أنه ملاقيك !

لقد كانوا أذكياء ففهموا معناها ، وكانوا أشرافاً فلم يحبوا أن يقولوا بأفواههم ، ما لا يحققونه بأفعالهم ، ولذلك استسهلوا القتل واليتم والثكل عن النطق بها ، ثم لما أعدهم الله لها ، وكتب السعادة لهم فقالوها ، صاروا بها سادة الدنيا ، وخلاصة الإنسانية ، وملائكة البشر .

ونحن يا سيدى يا رسول الله ، نحن نقولها كل يوم ، على منائرنا ومنابرنا ، وفى أسواقنا ومنازلنا ، وعند دهشتنا ومسرتنا ، لا نرى كلمة أخف منها على اللسان ، ولكنها لا تجاوز ألسنتنا ، ولاتبلغ أفئدتنا ، ولا يكون لها أثر فى حياتنا فهل نحن مسلمون ؟

وجئتهم بالقرآن فحاربوه ، ومنعوا القارئين أن يتلوه ، وفروا منه حتى لا يسمعوه ، ولكنهم كانوا إذا وقعت إلى أحدهم الآيات منه ، بدلته تبديلا وجعلته رجلا آخر : أقبل عمر الغليظ الجافى ، عدو الإسلام الألد ، ليأتى الجريمة الكبرى ، فسمع آيات معدودات ، فإذا هو ينقلب إلى عمر المؤمن الرقيق العبقرى الذى أدار وحده إحدى عشرة حكومة من حكومات هذه الأيام بسلمها وحربها ، وقضائها وماليتها ، وداخليتها وخارجيتها ، وجليل أمرها وحقيره ، ما قصر فى شىء منه ولا أساء ، فكان نادرة الزمان ، وأعجوبة الفلك ، ونحن نسمع المرتلين يتلون القرآن فى كل لحظة وفى كل مكان ، فى الأفراح والأتراح والحفلات والإذاعات ، بحلوق لعلها أندى من حلق قارىء عمر ، ونغمات أعلى ، وأصوات أشجى ، ومعرفة بالتجويد وضبط للمخارج والأداء ، وبصر بالألحان ، ولكنها لا تصنع بنا ماصنعت بعمر ، ما نجد لها إلا الاهتزاز والطرب ، كما تهتز لكل أغنية حلوة تسمعها آذاننا ، ونطرب لكل صوت شجى تميه أسماعنا ، ثم نقوم عنها فنمضى فى الحياة حيث توجهنا عقولنا وأهواؤنا ، فهل نحن مسلمون ؟

ودعوتهم إلى الإيمان ، فآمنوا بالله إيمان مراقبة وخشية وتق ، واستحيوا منه أن يراهم عاصين مخالفين ، فاستقاموا على الطريقة ، وجعلوا أهواءهم تبعاً لما جئتهم به ، فإذا غلبتهم نفوسهم فألموا بذنب ، ومن هو الذى لا يذنب ؟ تابوا إلى الله وأنابوا ، ولم يصروا ويستمروا .

وآمنوا بالملائكة ، فتشبهوا بهم ما استطاعوا فى طاعتهم وعبادتهم ، وأحيوا الملكية فى نفوسهم ، فماتت بحياتها البهيمية والشيطانية ، ورب إنسان هو أقرب إلى البهيمة وأدنى إلى الشيطان ... .

وآمنوا بالكتب ، وصدقوا بالقرآن ، فتلوه تلاوة تدبر واستنباط ، فأتوا ما أمر به وانتهوا عما نهى عنه ، وجعلوه لهم إماماً ، وحاكما مطاعاً .

وآمنوا بالرسل وبك خاتمهم وإمامهم ، فاستمعوا لقولك ، وأطاعوا أمرك ، واتبعوا سنتك ، وكنت أحبّ إليهم من آبائهم وأبنائهم ومن نفوسهم التى بين جوانبهم .

وآمنوا بالقضاء والقدر ، فسموا للدنيا سعيها ، وطلبوا المال من حلّه ، وأعدّوا للعدو ما استطاعوا من القوة ، ولم يدخروا وسعاً فى سعى ولا طلب ولا إعداد ، ولكنهم رضوا بما قدر الله عليهم بعدُ من نتائج ، وما قسم لهم من حظوظ ، ولم يجعلوا الدنيا أكبر همهم ، ولا منتهى أملهم ، ولم يتكلوا على المال ولا الولد ، لأن الله هو المعطى المانع ، ولم يتكالبوا على الدنيا لأن الله هو المطعم الرازق ، ولم يقعدوا عن الجهاد خوف الموت ، لأن الأعمار بيد الله ، فلا تموت نفس حتى يجىء أجلها .

فكان إيمانهم ظاهراً فى كل عمل من أعمالهم ، وفى كل لحظة من أعمارهم ، فى عبادتهم يخلصونها لله لا يريدون بها إلا وجهه ، فلا يتبعون بها عادة ، ولا يبتغون بها رياء ، وفى معاملتهم الناس لا يغشونهم ولا يظلمونهم ، ولا يكذبونهم ولا يؤذونهم وفى بيوتهم وأسواقهم ، وسفرهم وحضرهم ، وصحتهم ومرضهم ،

وأسرارهم وأعلانهم فهل نحن مؤمنون كإيمانهم ؟

يا سيدى يا رسول الله ، لقد أقمت الإسلام على خمسة أركان فما زال الشيطان يغرينا بأركانه الخمسة حتى هدمناها أو أزلزلناها ، فكان فينا من يقول كلمة الشهادة ولا يؤدى حقها ، ومن يدعى الإسلام ولا يصلى ، ومن يصلى بجوارحه ولسانه لا بقلبه وجنانه ، يقوم إلى الصلاة ليستريح منها لا ليستريح بها ، لا يجد فيها أنس نفسه ولا قرة عينه ، فلا تنهاه صلاته عن فحشاء ولا منكر ، فكأنه ما وقف بين يدى الله ، ولا ناجى بلسانه مولاه ، ومن يدعى الإسلام ولا يصوم ، ومن يصوم عن أكله وشربه ، لا يصوم عن قول الزور والعمل به ، ولا يسلم المسلمون من لسانه صائماً ولا يده ، فلا يرقق له الصوم له قلباً فيعطف على جائع ، أو يحسن إلى فقير ومن يدعى الإسلام ولا يزكى ولا يحج ، ومن يحج ليسيح فيرى البلاد ، ويتجر فيجمع المال ، ويكسب من حجه الذكر والجاه ما طهر بالحج قلبه ، ولا غسل ذنبه ، ولا أرضى ربه .

وتركتنا على بيضاء نقية ليلها كنهارها ، حلالها بين وحرامها بين ، وقلت لنا إن لكل ملك حمى ، وإن حمى الله محارمه ، ونهيتنا أن نحوم حول الحمى لئلا نقع فيه ، فتعدينا حدود الله ودخلنا حماه ، وأتينا المعاصى جهاراً نهاراً ، لا نخشى عاراً ، ولا نخاف ناراً ، ولا ربا جباراً ، بلغتنا قانون الله الذى أنزله لنحكم به ، وسقت إلينا أشد الوعيد ، وأبلغ التهديد ، إن نحن لم نحكم به ، فتركناه وحكمنا بقانون فرنسة . فهل نحن مسلمون ؟ !

يا سيدى يا رسول الله صلى الله وسلم عليك .

لقد كان معك أربعون تخفيهم دار الأرقم فى أصل الصفا ، فأظهرهم الحق حتى فتحوا الشرق والغرب ، وكان لك منبر واحد درجات من الخشب لا منخرفات ولا منقوشات ، فأسمعت منه الدنيا كلها صوت الحق ، دعوتها فلبت ، وأمرتها فأطاعت ، ولنا اليوم مائة ألف منبر ، فيها النقش البارع ، والزخرف الرائع يعلوها الخطباء فينادون : « يا أيها الناس اتقوا الله » . فلا يتقى أحد ، لأن الخطيب ما قال إلا بلسانه ، والمصلى ما استمع إلا بآذانه قد فسد العلماء فهم يعلمون ولا يعملون ، ويزهدون من الدنيا ولا يزهدون ، ويقولون : « الساكت عن الحق شيطان أخرس » . ويسكتون ، ويتلون : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » ويذلون للوزراء والأغنياء والسلاطين . فسد العلماء ففسد الناس فمن أين ينتقى الصلاح ؟

فنحن اليوم أربعمائة ألف ألف ، أمرنا بالجهاد لنفتح الدنيا فقعدنا حتى فتح العدو أرضنا ، وملك ديارنا ، وحكم رقابنا ، ولا نزال قاعدين نلهو ونلعب ، نعينه على أنفسنا ، ونهدم معه دورنا ودينا بأيدينا ، وننظر مالم يأتنا هو به من شروره ، فنأخذه نحن بأنفسنا : أخذنا قوانينه وتركنا لها قرآننا ، وعاداته وتركنا لها أخلاقنا ، وفسوقه فأضمنا فيه أعراضنا .

وقد غدونا دولا وحكومات . وأحزاباً وجماعات ، وما المسلمون إلا أخوة فى أسرة واحدة ، وما هم إلا أحجار البناء المرصوص يشد بعضه بعضا .

* * *

ولكنا لم ننسَ أن نحتفل بمولدك ، وأن ننصب الأعلام ، وتذبح الأنعام ، ونجتمع على الحطب والكلام ، والشراب والطعام ، فهل يكفر هذا ما أذنبنا ؟ هل يعجبك يا رسول الله ما فعلنا ؟ هل يرضى به ربك عنا ؟ !

يا رسول الله ! لقد ركبتنا ظلمات فوق ظلمات ، وحاقت بنا مصائب بعد مصائب ، وخفت صوت المصلحين ، وعلا نداء الضالين المضلين ، وتوارى الحق وجال الباطل ، فما العمل ؟ ضاقت الحيل ، وضعف الأمل ، وانسدت طرق الأرض ولم يبق إلا طريق السماء ؟!

( القاهرة ) على الطنطاوى


الكميت بن زيد

شاعر العصر المروانى

وقصائده الهاشميات

الثمن عشرون قرشاً

يطلب من إدارة الرسالة